شهريات

بقلم رئيس التحرير

١ . حزيران والكلمة

خمسة اعوام تمر على الخامس من حزيران .
والهزيمة مقيمة في صدورنا ، معششة في ضمائرنا .

ونحن ، الادباء العرب ، ما الذي فعلناه تجاه هذه الهزيمة ؟

لقد نظمنا القصائد ، وانشأنا القصص ، وكتبنا الدراسات ، مصورين تارة آثار الهزيمة المدمرة في النفوس، ممجدين تارة اخرى مآثر ابطال المقاومة ، مستلهمين تارة ثالثة بطولات التاريخ العربي ، علها تخفف عنها الشعورالخانق بما نحن فيه من عجز وقعود ، مجرّحين تارة رابعة الانظمة والحكومات والمسؤولين ...

كتبنا الوف الصفحات ، واطلقنا مئات النداءات والهتافات ، ولا احسبنا قصرنا أي تقصير في استعمال السلاح الذي اعطيناه ، فما كانت النتيجة ؟

اننا اليوم ، بعد خمسة اعوام ، نرتد الى ذواتنا ، فيذهلنا ان نكتشف ان كل شعر الشعراء ، وكل قصص القصاصين ، وكل دراسات الباحثين لم تستطع أن تزيح قيد انملة كابوس الهزيمة الجاثم على صدورنا وما يخلفه من مرارة تكاد ان تنقلب الى يأس ... فهل فقدت « الكلمة » كل قيمة لها وكل تأثير ، وهل اصبحت ، كسلاحنا سواء بسواء ، اداة تخدير ؟

ان القارىء الذي توجّه اليه الكلمة يتلقاها ، من غير شك ، بكل حماسة واقبال . ولكن الذي لا شك فيه ايضا ان اثرها في نفسه سرعان ما يزول حين يتذكر الواقع الذي يعيشه ، واقع الهزيمة الذي يسد منافذ الامل ويملأ آفاقنا بالظلام .

فمن هو المسؤول عن ذلك ؟ من هو المسؤول عن جعل الكلمة العربية اداة للتسلية الموقتة والتعزية السريعة ؟ من المسؤول عن جعل الكلمة العربية دليلا آخر على العجز والاخفاق ؟

أليسوا هم الحكام الذين تخلوا عن السلاح الحقيقي الذي يجب ان يشهروه ، ليغتصبوا سلاح الادباء، فيستعملوه في غير المهمة النبيلة التي رصد لها ؟ اليسوا هم الذين اصطنعوا الكلمة للكذب والدجل والتشويه ؟

ألم يكن طبيعيا ، بعد ذلك ، ان نجد القارىء العربي خاصة ، والانسان العربي عامة ، قد فقد ثقته بالكلمة ، هذه التي ضاعت قيمتها بين ايدي محترفي السياسة ؟

لقد اتيح لنا ، ولكثير من المفكرين والادباء العرب ، ان نشاهد في هذه السنوات الخمس ، عددا من المسؤولين وهم يصفقون في المؤتمرات تأييدا لبعض الشعراء والادباء الذين كانوا يدينون الحكام ويهاجمونهم ويردون اليهم اسباب الهزيمة ... كان هؤلاء المسؤولون يصفقون موافقين ، كان لم يكن لهم شأن في ما حدث ، وفي ما هو مستمر ... وكنا نخرج دائما ، والمرارة في نفوسنا ، بأن الكلمة قد لفظت انفاسها في الضمائر والعقول ، لان حكامنا قد نجحوا في ان يجعلوها اداة « تنفيس » ليس غير ، في أفواه الادباء وعلى اقلامهم ... انهم يبتسمون ساخرين ، ويقولون للمقربين : « دعوهم يتكلموا ... هل يستطيعون ان يزحزحونا عن مقاعدنا ؟ » بلى .. قد يكون لهم موقف ارصن واكثر ايجابية، فيأمرون بمصادرة ما يقول هؤلاء الشعراء والادباء !

السؤال الان : اما والوضع كذلك ، فما جدوى ان

يكتب الكتاب ويشعر الشعراء ؟ هل من أمل ؟ كيف السبيل الى ان تسترد الكلمة العربية قيمتها ونقاءها ، فتفعل فعلها الحقيقي العميق ؟

لا مجال لليأس . يجب ان يسترد ادباء الكلمة التي اغتصبت منهم . ان هزيمتنا ليست هزيمة عسكرية فحسب.

وان معركتنا ليست ضد الامبريالية والصهيونية فحسب .

وان الاديب العربي ، بعد خمسة حزيرانات ، مدعو الى مزيد من النتاج الثوري الذي يفضح كل ما في المجتمع العربي من زيف ودجل ، على جميع المستويات .

٢ . ازمة الانتاج اللبناني

طرح عليّ اديب صحفي السؤال التالي :

« ما السبب في فقر الانتاج الروائي في لبنان حيال الفنون الادبية الاخرى ؟ »

وقد رأيت ان انقل جوابي اليه فيما يلي :

أصحيح ان الانتاج الروائي هو وحده الفقير اذا قورن بالفنون الادبية الاخرى في لبنان ؟

انني اعتقد ان هذا الفقر ينسحب على جميع فنون الادب في لبنان ، باستثناء المسرح الذي شهد في السنوات الاخيرة ازدهارا حقيقيا .

فالشعر والقصة والدراسة والنقد ، كلها تعاني ازمة انتاج عندنا ، منذ اكثر من عشر سنوات . وهذا يعني اننا نعاني ازمة خلق وابداع ، بالنسبة الى ما نشهده من انتاج في البلاد العربية الاخرى اولا ، وبالنسبة الى ما عرفه الادب عندنا من خصوبة في الخمسينات والستينات .

وعلى ذلك يصبح الموضوع هو تحري اسباب هذه الازمة في صورة عامة .

ويخطر في البال ان يكون احد هذه الاسباب اضطراب الاوضاع السياسية في المنطقة العربية ، ومنها لبنان . لكن هذا اضطراب لم يؤد الى ازمة في الانتاج في البلاد العربية الشقيقة ، بل لعله كان حافزا لخلق انتاج يتميز بالتعبير عن القلق والتمزق وربما التشاؤم واليأس ، او بالتعبير عن الامل في الفداء والتضحية والنضال . مما يدل على ان الاضطراب السياسي لا يلزم عنه بالضرورة انقطاع عن العطاء .

ويخطر في البال ان يكون احد هذه الاسباب غياب جيل الشيوخ اما بالوفاة (عمر فاخوري ، مارون عبود ، رئيف خوري ، سعيد تقي الدين وسواهم) واما بالانقطاع عن الانتاج الابداعي (ميخائيل نعيمة ، خليل تقي الدين ، توفيق يوسف عواد (*) وسواهم) لكن هناك جيلا جديدا بدا منذ الخمسينات يحتل ساحة الانتاج ، فهل كان عطاؤه ضعيفا او محدودا ؟ الواقع ان انتاج هذا الجيل ، وربما كنت شخصيا احد افراده ، قد ضعف كما وكيفا منذ الستينات . ويبقى السؤال مطروحا عن اسباب ذلك .

أيكون السبب ، أو الاسباب ، أدن ، مرتبطا « بوضع » الاديب اللبناني ؟ هل يعيش الاديب اللبناني حياة معنوية ومادية تمكنه من الانتاج ؟

ان شروط الابداع التي ينبغي ان تتوافر للاديب على الصعيد المعنوي تتلخص في ضمان حرية القول له . ولا ريب في ان ذلك مؤمن للاديب في لبنان . اما على الصعيد المادي، فهنا مجال القول الواسع .

ونحن نعتقد ان الاديب في لبنان منصرف اجمالا عن العطاء والانتاج ، لانه منصرف اجمالا الى ملاحقة اسباب العيش ووسائل الرزق .

ان معظم الادباء اللبنانيين ، ان لم نقل كلهم ، مرتبطون باعمال واشغال بعيدة عن همومهم الادبية والفنية ، لكنها تؤمن لهم الحد الادنى من العيش . وكثيرون منهم ، في أحسن الظروف ، يعملون في الصحافة ، وليست الصحافة دائما بالمناخ الصالح للانتاج الفني . ونحن في لبنان لا نعرف ادبيا متفرغا للانتاج وحده الا ميخائيل نعيمه ، امد الله في عمره .

والحق ان الاديب في لبنان ، شأنه شأن اي مواطن ، ملاحق بكثير من مطالب العيش ليقيم اوده واود اسرته وليؤمن الدراسة والطبيب والملبس الخ ، ما دامت الضمانات العائلية والصحية وسواها معدومة او ضعيفة . فهو في هذه الحالة يضحي بانتاجه الادبي من اجل معيشته ومعيشة اسرته. ولئن كان ثمة قلة ضئيلة من الادباء تتطلب الرفاه وتسعى الى البذخ ، فان ذلك قد يكون مشروعا ومفهوما في لبنان الذي يعيش معظم سكانه فوق طاقاتهم المادية . ولكن يبقى ان معظم الادباء يعيشون حياة ضيقة مليئة بالقلق والمخاوف. فمن هو المسؤول الحقيقي والرئيسي عن هذا الوضع الذي يجد الاديب نفسه مضطرا الى العيش فيه ؟

اننا نعتقد ان الدولة عندنا مسؤولة ، الى حد بعيد ، عن هذه الازمة . ان تنكر المسؤولين ، ابتداء من القمة وانتهاء بالسفح ، لكل انتاج ابداعي ، وانعدام جميع اسباب الاحتفال او التشجيع او التكريم ، كل ذلك يحدو ادباءنا الى الزهد في

(*) اطلعت اخيرا على مخطوطة رواية جديدة لتوفيق يوسف عواد تعيده في صورة بارزة الى ميدان الادب الروائي .

الادب والانتاج ، سعيا وراء الرزق ، بحيث يصبح همّ الادب عندهم شاغلا ضعيفا . ولئن كان صحيحا ، الى حد ما ، ان الاديب المبدع لا ينتظر تشجيع حكومة ما ليبدع ، فاكثر منه صحة ، والى ابعد الحدود ، ان التنكر لانتاج الادباء لا يمكنه ان يؤدي الى ازدهار الادب وخصب العطاء .

ان في كل بلد عربي ، اذا لم نشأ ان نتحدث عن البلاد الاجنبيه ، ادارات مسؤولة تابعة لوزارة الثقافة والاعلام ، تهتم بالانتاج فتقدم الى المؤلفين مساعدات لنشر كتبهم ، او تنشر لهم هذه الكتب وتعمل على توزيعها وترويجها ، او تشتري منها كميه معينه لمكتباتها ودوائرها ، ما عدا لبنان . اما هذه الجوائز الفقيرة التي تمنحها الدوله احيانا ، فهي لا توحي بالثقة ، بل تطرح كثيرا من علامات الاستفهام ، لما يرافقها من اهواء ونزوات ، فهي بالتالي ليست عنصر تشجيع او تكريم .

وهكذا نستطيع ان نحكم ، في نهاية المطاف ، ان فقر الانتاج عندنا ، ليس في الروايه فقط ، بل في كل فن ادبي اخر ، مرده ، الى حد بعيد ، الى تنكر فظيع لدى المسؤولين الذين يضعون الثقافة والفكر في آخر همومهم ، ولا يفكرون في اية سياسه ثقافية تضع تشريعا علميا يضمن الحد الادنى من الوسائل التي تمكن الاديب من الانصراف الى الانتاج (من مثل التفرغ والمنح والرحلات ورواتب التقاعد والضمانات الصحية والعائليه الخ) .

ان « الاشعاع » الذي كان يدعيه المسؤولون في العهود السابقة ، والذي لا يزال يدعيه المسؤولون اليوم ، انحسر من ميدان الثقافة والفكر ، لينحصر في ميدان السياحة والاصطياف والخدمات وربما التفاح « المشع » . ولولا المبادرات الفردية التي يقوم بها بعض وسائل الاعلام الخاصة في لبنان (من مثل المجلات الادبيه ودور النشر والمسارح وسواها) من غير اي تشجيع او مساعدة ، لفقد لبنان كل سمعة ثقافية وادبية له . وهذه السمعة تتعرض الان ، على كل حال ، لكل الاخطار ما دامت السياسة الثقافية في لبنان غائبة عن فكر المسؤولين وضمائرهم !

٣ . الاب والبنت

بلغت ابنتي « رائدة » هذا الشهر الخامسة عشرة .
وقد اقامت في المنزل احتفالا صغيرا بهذه المناسبة دعت اليه بعض لداتها من رفيقاتها وقريباتها .

وآثرت اول الامر الا أتطفل على الاحتفال ، وان اترك للمحتفلات حريتهن يمارسنها كما يشأن ، بالرغم من رغبتي في حضور هذا اللقاء ...

وظللت في غرفتي اقرأ في كتاب ، واحاول ان افهم ما اقرأ ، فيما كانت اصوات الفتيات وصراخهن وضحكهن تبلغ مسمعي ، فتزيدني رغبة وشوقا ...

ولا بد ان رائدة قد هجست بما كنت أحسه ، فدخلت عليّ الغرفة تطلب ان تعرّفني على رفيقاتها وان اشاركهن حفلة اطفاء الشمعات الاربع عشرة .

وحين واجهت الفتيات ، داخلني على الفور الشعور بأني بدات اشيخ ...

كانت اعمارهن تتراوح بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، وكان الصبا يتفجر من وجوههن واجسامهن ، وكان المرح ينطق في ملامحهن حيوية وبشرا وانطلاقا .

وجلست اصغي اليهن يتمازحن ويتندّرن على اساتذتهن ...

ثم اخذن يرقصن على انغام الموسيقى رقصة «الجيرك»

ودعتني رائدة الى مراقصتها ، فقلت لها أنني لا احسن هذه الرقصة المجنونة ، واني كدت انسى حتى « التانغو » الرومانتيكية ... فسارعت رائدة تضع موسيقى تانغو ، وتتجه اليّ وهي تقول :

ـ تعال يا بابا ... سأذكرك بشبابك !

وفتحت لي ذراعيها ، فخاصرتها واخذنا نرقص .

واغمضت عينيّ ، حتى لا ترى رائدة دمعتي تلك .

سهيل ادريس

صدر حديثا

العدد الخامس من مجلة

الطريق

*

في هذا العدد ملف خاص عن

القصة العراقية الحديثة

آراء .. وملامح .. ونماذج
(اشترك في هذا الملف ٢٥ كاتبا)

*

مع عدد من الدراسات والمقالات
في الفكر السياسي والآداب والفنون